ســـورة الزخرف

هى مكية إلا آية ٤٥ فإنها نزلت بالمدينة ، قاله مقاتل ، وآياتها تسع وثمانون ، نزلت بعد الشورى .

ووجه مناسبتها ماقبلها أن مفتتح هذه يشاكل مختتم تلك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حٰمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) .

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن ، المبين : أى الموضح لطريق الهدى المبعد من الضلالات لعلكم تعقلون : أى لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه ، أمّ الكتاب : هو علم الله الأزلى، حكيم : أى ذو حكمة بالغة ، يقال ضربت عنه وأضربت عنه : أى تركته ، والذكر : أى القرآن ، صفحا : أى إعراضا ، مسرفين : أى منهمكين فى كفركم وتوليكم عن الحق ، بطشا : أى قوة وجلدا ، مضى : أى سلف ، والمثل : الصفة .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بكتابه المبين لطريق الهدى إنه جعل هذا القرآن بلغة العرب لغة قومك ليفقهوا معناه ويحيطوا به خُبْرا ، وإنه محفوظ فى علمه تعالى فليس هو من عند

obeikandi.com

محمد كما تدّعون ، وإننا لن نترك تذكيركم به لأجل إعراضكم عنه ، وانهما ككم في الكفر به ، رحمة منا ولطفا بكم ، ثم حذرهم وأنذرهم بأن كثيرا من الأمم قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة ، كذبوا رسلهم فكان عاقبتهم ما رأيتم وحل بهم ما تشاهدون آثاره .

الإيضاح

(حمٓ) تقدم الكلام في مثل هذا من قبل .

(والكتاب المبين) أي والقرآن المبيّن لطريق الهدى والرشاد ، الموضح لما يحتاج إليه البشر في دنياهم وآخرتهم ليفوزوا بالسعادة ، فمن سلك سبيله فاز ونجا ، ومن تنكب عنه خاب سعيه وضل سواء السبيل .

(إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) أي إنا أنزلناه قرآنا عربيا إذ كنتم أيها المنذَرون به من رهط محمد صلى الله عليه وسلم عربا ، لتعقلوا مافيه من عبر ومواعظ ، ولتتدبروا معانيه ، ولم ينزله بلسان العجم حتى لاتقولوا نحن عرب ، وهذا كلام أعجمي لانفقه شيئا مما فيه .

ثم بين شرفه في الملإ الأعلى تعظيما له وليطيعه أهل الأرض فقال :

(وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم) أي وإن هذا الكتاب في علمه الأزلي رفيع الشأن ، لاشتماله على الأسرار والحكم التي فيها سعادة البشر وهدايتهم إلى سبيل الحق .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟) أي أنترك إنذاركم وتذكيركم بالقرآن لانهماككم في الكفر والإعراض عن أوامره ونواهيه ؟ كلا .

لا نفعل ذلك رحمة بكم ، وقد كانت حالكم تدعو إلى تخليتكم وما تريدون حتى تموتوا على الضلال .

قال قتادة : لو أن هذا القرآن قد رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله اه .

أراد أنه تعالى من رحمته ولطفه بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وإن كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل يأمر به ليهتدى من قدّر له الهداية ، وتقوم الحجة على من كتب له الشقاوة .

ثم قال مسليًا رسوله صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه ، آمرا له بالصبر ، مهدِّدا للمشركين ، منذرا لهم بشديد العقاب .

(وكم أرسلنا من نبىّ فى الأولين . وما يأتيهم من نبىٍّ إلا كانوا به يستهزئون) أى وكثيرا ما أرسلنا فى الأمم الغابرة رسلا قبلك كما أرسلناك إلى قومك من قريش ، وكلما أتى نبى أمته يدعوهم إلى الهدى وطريق الحق استهزءوا به وسخروا منه كما يفعل قومك بك — فقومك ليسوا ببدع فى الأمم ، ولا أنت ببدع فى الرسل ، فلا تأس على ما تجد منهم ولا يشقّنّ ذلك عليك ، فهم قد سلكوا سبيل مَن قبلهم واحتذوا حذوهم ، ونهجوا نهجهم حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ ، وكن كما كان أولو العزم من الرسل ، واصبر كما صبروا على ما أوذوا فى سبيل الله .

ثم ذكر عقبى تكذيبهم واستهزائهم برسله تسلية لرسوله وتحذيرا لهم فقال :

(فأهلكنا أشدّ منهم بطشا) أى فأهلكنا المكذبين بالرسل ولم يقدروا على دفع بأسنا إذ أتاهم ، وقد كانوا أشد بطشا من قومك وأشد قوة ، فأحرِ بهؤلاء ألا يعجزونا .

ونحو الآية قوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً » الآية .

(ومضى مثل الأولين) أى وقد مضت سنتنا فى المكذبين لرسلهم من قبلكم، ورأيتم ما حل بهم ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم .

ونحو الآية قوله : « فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ » وقال : « سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ » .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) .

شرح المفردات

مهدا : أى فراشا ، وأصله موضع فراش الصبى ، سبلاً : واحدها سبيل ، وهى الطريق ، بقدر : أى بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة ، فأنشرنا : أى أحيينا ، ميتا : أى خالية من النبات ، الأزواج : أصناف المخلوقات ، لتستووا على ظهوره . أى لتستقروا عليها ، سخر : ذلل ، مقرنين : أى مطيقين ، قاله قُطْرُب وأنشد قول عمرو بن معديكرب :

لقد علم القبائل ما عُقيل لنا فى النائبات بمقْرِنينا

وقال آخر :

رَكبتم صَعْبَتَىْ أَشَرٍ وَحَيْفٍ	ولستم للصعاب بمقرنينا

لمنقلبون : أى راجعون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين منهمكون فى كفرهم وإعراضهم عما جاء به القرآن من توحيد الله والبعث — أبان هنا أن فعلهم يخالف قولهم ، فإن سألتهم عن الخالق لهذا الكون من سمائه وأرضه ليقولُن : الله ، وهم مع اعترافهم به يعبدون الأوثان والأصنام ، ثم ذكر سبحانه جليل أوصافه ، فأرشد إلى أنه هو الذى جعل الأرض فراشا وجعل فيها طرقا لتهتدوا بها فى سيركم ، ونزل من السماء ماء بقدر الحاجة يكفى زرع النبات وسقى الحيوان ، وخلق أصناف المخلوقات جميعا من حيوان ونبات ، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها وتشكروا الله على ما آتاكم ، وتقولوا : لولا لطف الله بنا ما كنا لذلك بمطيقين ، وإنا يوم القيامة إلى ربنا راجعون ، فيجازى كل نفس بما كسبت ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

الإيضاح

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) أي ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين من قومك : من خلق السموات والأرض؟ لأجابوك : خلقهن العزيز فى سلطانه وانتقامه من أعدائه ، العليم بهن وما فيهن لايخفى عليه شىء من ذلك .

والخلاصة — إنهم يعترفون بأنه لاخالق لهما سواه وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأوثان .

ثم دل على نفسه بذكر مصنوعاته فقال :

(١) (الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون) أى والعزيز العليم هو الذى مهد لكم الأرض وجعلها لكم وطاء تطئونها بأقدامكم ، وتمشون عليها بأرجلكم ، وجعل لكم فيها طرقا تنتقلون فيها من بلد إلى آخر ، ومن إقليم إلى إقليم لمعاشكم ومتاجركم وابتغاء رزقكم .

والخلاصة — إن الخلق كلهم يتربون على الأرض وهى موضع راحتهم كما يربى الصبى على مهده .

(٢) (والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون) أى وهو الذى ينزل من السماء ماء بقدر الحاجة ، فلا يجعله كثيرا حتى لا يكون عذابا كالطوفان الذى أنزل على قوم نوح ، ولا قليلا لا يكفى النبات والزرع لئلا تهلكوا جوعا ، فتحيا به الأقاليم التى كانت خالية من النبات والشجر .

وكما أحيينا الأرض بعد موتها بالماء نحييكم ونخرجكم من قبوركم أحياء .

(٣) (والذى خلق الأزواج كلها) أى وهو الذى خلق سائر الأصناف مما تنبت الأرض من نبات وأشجار وثمار وأزاهير ، ومن الحيوان على اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتها .

(٤) (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) أى وهو الذى جعل لكم من السفن ما تركبونه فى البحار إلى حيث قصدتم لمعايشكم ومتاجركم ، ومن الأنعام ما تركبونه فى البر كالخيل والبغال والحمير ، ومما سيجدّ من وسائل المواصلات وطرق النَّقْلَة برًّا وبحراً كما جاء فى سورة النحل من قوله تعالى : «وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» .

(لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) أى لكى تستووا على ظهور ما تركبون من

الفلك والأنعام ، ثم تذكروا نعمة ربكم الذى أنعم به عليكم ، فتعظموه وتمجدوه وتقولوا تنزيها له عما يصفه المشركون : سبحان الذى سخر لنا هذا الذى ركبناه ، وما كنا لولا تسخيره وتذليله بمطيقين ذلك ، فالأنعام مع قوتها ذللها للإنسان ينتفع بها حيث شاء وكيفما أراد ، ولولا ذلك ما استطاع الانتفاع بها ، ولقد أشار إلى نحو من هذا العباسُ بن مرداس فقال فى وصف الجمل :

وتضربه الوليدة بالْهَرَاوَى فلا غِيَرٌ لديه ولا نكير

واعلم أنه سبحانه عيّن ذكرا خاصا حين ركوب السفينة وهو قوله: « بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » وذكرا آخر حين ركوب الأنعام وهو قوله : « سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا » وذكرا حين دخول المنازل وهو قوله: «رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر ركب راحلته ثم كبر ثلاثا ثم قال : (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) قال القرطبى : علّمنا سبحانه وتعالى ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرفنا فى آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ، فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح عن ظهرها فهلك ، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق .

فلما كان الركوب مباشرةَ أمر محظور ، واتصالا بسبب من أسباب التلف ، أمر ألا ينسى عند اتصاله به موته وأنه هالك لامحالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدّا للقاء الله ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه اهـ .

ولأجل ما تقدم أشار بقوله :

(وإنا إلى ربنا لمنقلبون) أى وإنا لصائرون إلى ربنا بعد مماتنا ، فيجازى

كل نفس بما عملت ، فاستعدوا لهذا اليوم ، ولا تغفلوا عن ذكره فى حلكم وترحالكم يوم ظعنكم ويوم إقامتكم .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥)
أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ
يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ
هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)
وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)
بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ
مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا
مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) .

شرح المفردات

جزءا : أى ولدا؛ إذ قالوا الملائكة بنات الله ، وعبر عن الولد بالجزء ، لأنه بضعة ممن ولد له ؛ كما قال شاعرهم :

إنما أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض

مبين : أى ظاهر الكفر ، من أبان بمعنى ظهر ، أصفاكم : أى اختار لكم ، ضرب : أى جعل ، مثلا : أى شبها أى مشابها بنسبة النبات إليه ، لأن الولد يشبه الوالد ، كظيم : أى ممتلئ غيظا وغما ، ينشّأ : أى يربى ، فى الحِلْيَة : أى فى الزينة ، الخصام : أى الجدل ، غير مبين : أى غير مظهر حجته لعجزه عن الجدل ، يخرصون: أى يكذبون ، مستمسكون : أى متمسكون ومعولون ، على أمة : أى على طريقة خاصة ، مترفوها : أى أهل الترف والنعمة فيها الذين أبطرتهم الشهوات ، فلا ينظرون إلى مايوصلهم إلى الحق ، مقتدون : أى سالكون طريقتهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم يعترفون بالألوهية لله وأنه خالق السموات والأرض ، أردف هذا ببيان أنهم متناقضون مكابرون ، فهم مع اعترافهم لله بخلق السموات والأرض يصفونه بصفات المخلوقين المنافية لكونه خالقا لها ، إذ جعلوا الملائكة بنات له ، ولا غرو ، فالإنسان من طبعه الكفران وجحود الحق، ومن عجيب أمرهم أنهم أعطوه أخس صنفى الأولاد ، وما لو بشّر أحدهم به اسودّ وجها وامتلأ غيظا ، ومن يتربى فى الزينة وهو لايكاد يبين حين الجدل ، فلا يُظْهِرُ حجة ولا يؤيد رأياً ، واختاروا لأنفسهم الذكران ، ثم أعقبه بالنعى عليهم فى جعلهم الملائكة إناثا ، وزاد فى الإنكار عليهم ببيان أن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة ، فهل هم شهدوا ذلك ؟ ثم توعدهم على هذه المقالة وأنه يوم القيامة يجازيهم بها .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى ، قالوا : لو شاء الله ألا نعبد الملائكة ما عبدناها ، لكنه شاء عبادتها لأنها هى المتحققة فعلا فتكون حسنة ويمتنع النهى عنها ، ثم رد مقالهم بأن المشيئة إنما هى ترجيح بعض الأشياء على بعض ، ولا دخل لها فى حسن أو قبح .

و بعد أن أبطل استدلالهم العقلى نفى أن يكون لهم دليل نقلى على صحة مايدّعون،

ثم أبان أن مافعلوه إنما هو محض التقليد عن الآباء دون حجة ولا برهان ، وهم ليسوا بيدع فى ذلك ، فكثير من الأمم قبلهم قالوا مثل مقالهم ، مع أن الرسل بينوا لهم الطريق السوىّ فكفروا به واتبعوا سَنن من قبلهم حذو القُذّة بالقذّة ، فكان عاقبة أمرهم أن حلّ بهم نكالنا كما يُشاهدون ويرون من آثارهم .

الإيضاح

(وجعلوا له من عباده جزءا) أى وأثبتوا لله ولدا ، إذ قالوا الملائكة بنات الله قاله مجاهد والحسن ، والولد جزء من والده كما قال عليه السلام « فاطمة بَضْعة منى » .

وإن مقالهم هذا يقتضى الكفر من وجهين :

(١) كون الخالق جسما محدثا لمشابهة الولد له ، فلا يكون إلها ولا خالقا .

(٢) الاستخفاف به ، إذ جعلوا له أضعف نوعى الإنسان وأخسهما .

ثم أكد كفرهم بقوله :

(إن الإنسان لكفور مبين) أى إن الإنسان لجحود بنعم ربه التى أنعمها عليه ، ظاهر كفره لمن تأمل حاله وتدبر أمره .

ثم زاد فى الإنكار عليهم والتعجب من حالهم فقال :

(أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) أى هل اتخذ سبحانه من خلقه أخسّ الصنفين لنفسه ، واختار لكم أفضلهما ؟ وكأنه قيل : هبوا أنه اتخذ ولدا فأنتم قد ركبتم شططا فى القسمة فادعيتم أنه سبحانه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما وترك لنفسه شرهما وأدناهما ، فما أنتم إلا حمقى جهلاء .

ونحو الآية قوله : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى — جائرة — » .

ثم زاد فى التوبيخ والإنكار بقوله :

(وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودّا وهو كظيم)

أى وإذا بشر أحد هؤلاء بما نسبوه لله من البنات أنِف وعَلَته الكآبة والحزن من سوء مابشر به وتوارى من القوم خجلا .

روى أن بعض العرب وضعت امرأته أنثى فهجر البيت الذى ولدت فيه المرأة فقالت :

ما لأبى حمزة لايأتينا		يظَلّ فى البيت الذى يلينا
غضبانَ ألا نلد البنينا		وليس لنا من أمرنا ماشينا
وإنما نأخذ ما أُعْطينا

ثم كرر الإنكار وأكده فقال :

(أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) أى أو قد جعلوا لله الأنثى التى تتربى فى الزينة ، وإذا خوصمت لاتقدر على إقامة حجة ولا تقرير دعوى ، لنقصان عقلها وضعف رأيها ؟ وما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك .

وفى قوله (ينشأ فى الحلية) إيماء إلى مافيهن من الدعة ورخاوة الخَلق بضعف المقاومة الجسمية واللسانية ، كما أن فيه دلالة على أن النشوء فى الزينة ونعومة العيش من المعايب والمذامّ للرجال ، وهو من محاسن ربات الحجال ، فعليهم أن يجتنبوا ذلك ويأنفوا منه ويربئوا بأنفسهم عنه ، قال شاعرهم :

كتب القتل والقتال علينا		وعلى الغانيات جرّ الذيول

وروى عن عمر أنه قال : « اخشوشنوا فى الطعام ، واخشوشنوا فى اللباس ، وتمعْدَدوا » أى تزيّوا بزِىّ مَعَدّ فى تقشفهم .

(وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) أى سموهم وحكموا لهم بذلك ، وفى هذا كفر من وجوه ثلاثة :

(١) إنهم نسبوا إلى الله الولد .

(٢) إنهم أعطوه أخس النصيبين .

(٣) إنهم استخفوا بالملائكة بجعلهم إناثا .

وقد رد الله عليهم مقالهم فقال :

(أشهدوا خلقهم ؟) أى أحضروا خلق الله لهم فشاهدوهم بنات حتى يحكموا بأنوثتهم ؟

ونحو الآية قوله : « أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ » .

وفى هذا تجهيل شديد لهم ورمى لهم بالسفه والحمق .

ثم توعدهم على مقالهم فقال :

(ستكتب شهادتهم ويسألون) أى ستكتب هذه الشهادة التى شهدوا بها فى الدنيا فى ديوان أعمالهم ، ويسألون عنها يوم القيامة ليأتوا ببرهان على صحتها ، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا .

وفى هذا دليل على أن القول بغير برهان منكر ، وأن التقليد لايغنى من الحق شيئاً .

ثم حكى عنهم فناً آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء والسخرية فقال:

(وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم) أى وقالوا لو شاء الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام التى هى على صورة الملائكة ، فإنه تعالى عالم بذلك وهو قد أقرّنا عليه .

وقد جمعوا فى هذا أفانين من الكفر وضروبا من الترهات والأباطيل ، منها :

(١) أنهم جعلوا لله ولدا تقدس سبحانه وتنزه عن ذلك .

(٢) دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين ، إذ جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً .

(٣) عبادتهم لهم بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ، بل بالرأى والهوى والتقليد للأسلاف .

(٤) احتجاجهم بتقدير الله ذلك ، وقد جهلوا فى هذا جهلا كبيرا ، فإنه تعالى أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ، وهو منذ أن بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر

بعبادته وحده لاشريك له ، وينهى عن عبادة سواه كما قال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » وقال : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » .

ثم رد عليهم مقالهم و بيّن جهلهم بقوله :

(مالهم بذلك من علم) أى ما لهم على ما قالوا ، دليل ولا برهان يستندون إليه فى تأييد دعواهم .

ثم أكد هذا الردّ بقوله :

(إن هم إلا يخرصون) أى ما هم إلا كاذبون فيما قالوا ، متمحلون تمحلا باطلا ، متقوّلون على الله ما لم يقله .

و بعد أن بين بطلان قولهم بالعقل أتبعه ببطلانه بالنقل فقال :

(أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون) أى بل أأعطيناهم كتابا من قبل هذا القرآن ينطق بصحة مايدّعون ،فهم بذلك الكتاب متمسكون، وعليه معولون .

والخلاصة — إنه لا كتاب لهم بذلك .

ولما بين أنه لاحجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل — ذكر أن الحامل لهم على ماجنحوا إليه إنما هو التقليد فقال :

(بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مهتدون) أى ليس لهم مستند على ماهم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد ، وقد قالوا إنهم أرجح منا أحلامًا وأصح أفهامًا ، ونحن سائرون على طريقتهم ، وسالكون نهجهم ، ولم نأت بشىء من عند أنفسنا ، ولم نغلط فى الاتباع واقتفاء الآثار ، وقد قال قيس ابن الخطيم :

كنا على أمة آبائنا ويقتدى بالأول الآخرُ

والخلاصة — إنهم اعترفوا بأن لامستند لهم من حيث العيان ولا من حيث العقل ،ولا من حيث النقل ، و إنما يستندون إلى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم .

ثم بين سبحانه أن مقال هؤلاء قد سبقهم إلى مثله أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل فقال :

(وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون) أى ومثل هذا المقال المتناهى فى الشناعة قالت الأمم الماضية لإخوانك الأنبياء، فلم نرسل قبلك فى قرية رسولا إلا قال رؤساؤها وكبراؤها : إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ، و إنا على منهاجهم سائرون ، نفعل مثل ما فعلوا ، ونعبد ما كانوا يعبدون .

فقومك أيها الرسول ليسوا ببِدْع فى الأمم ، فهم قد سلكوا نهج مَن قبلهم من أهل الشرك فى جواباتهم بما أجابوك به ، واحتجاجهم بما احتجوا به لمقامهم على دينهم الباطل .

ونحو الآية قوله : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » .

و إنما قال أولا : مهتدون ، وثانيا : مقتدون ، لأن الأول وقع فى محاجتهم النبى صلى الله عليه وسلم وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين وأنهم مهتدون كآبائهم ، فناسبه (مهتدون) والثانى وقع حكاية عن قوم ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء فناسبه (مقتدون) .

وفى هـذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد فى نحو ذلك ضلال قديم ، وتخصيص المترفين بالذكر للإشعار بأن الترف هو الذى أوجب البطر وصرفهم عن النظر إلى التقليد .

ثم حكى ما قاله كل رسول لأمته :

(قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟) أى قال لهم الرسول : أتبغون ذلك وتسيرون على نهجه ، ولو جئتكم من عند ربكم بدين أهدى إلى طريق الحق ، وأدل على سبيل الرشاد مما وجدتم عليه آباءكم من الدين والملة ؟ .

وتلخيص ذلك — أتتبعون آباءكم وتقلدونهم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟.

فأجابوه إجابة تيئيس من اتباعهم له على كل حال .

(قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) أى قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه ولو جئتنا بما هو أهدى منه ، فكأنهم يقولون : إنهم لو علموا صحة ما جئتهم به ما انقادوا لك ، لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله .

فعندئذ لم يبق لهم عذر ، ومن ثم قال :

(فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) أى فانتقمنا من هؤلاء المكذبين لرسلهم الجاحدين بربهم ، فانظر أيها الرسول كيف كان عاقبة أمرهم حين كذبوا بآياتنا ؟ ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لغيرهم ؟

وفى هذا سلوة لرسوله ، وإرشاد له إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه له ، ووعيد وتهديد لهم .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا

لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) .

شرح المفردات

لأبيه : أى آزر ، براء : كلمة لاتثنى ولا تجمع يقولون : أنا منك براء ، ونحن منك براء ، فإن قلت برىء ثنيت وجمعت ، فطرنى : أى خلقنى ، والكلمة : هى كلمة التوحيد ، فى عقبه : أى فى ذريته ، مبين : أى ظاهر الرسالة بما له من المعجزات الباهرة ، من القريتين : أى من إحدى القريتين مكة والطائف ، والرجل الذى من مكة : هو الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يسمى ريحانة قريش ، والذى من الطائف : هو عروة بن مسعود الثقفى ، ورحمة ربك: هى النبوة ، والسخرىّ : هو الذى يقهر على العمل ، والسقف بضمتين : واحدها سقف كرهن ورهن ، والمعارج : واحدها مِعْرج كمنبر، وهو المسمى الآن (أسنسير) وهذا من معجزات القرآن إذ لم يكن معروفا عصر التنزيل ، يظهرون : أى يرتقون ، زخرفا : أى نقوشا وتزاويق ، قال الراغب الزخرف : الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب زخرف ، ولمّا بمعنى إلا ؛ حكى سيبويه نشدتك الله لمّا فعلت كذا : أى إلا فعلت كذا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن الذى دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائفة هو تقليد الآباء والأجداد، وبين أنه طريق باطل، ونهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من التقليد - أردف هذا بأن ذكرهم أن أشرف آبائهم وهو إبراهيم عليه السلام ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعتهم، فيجب عليكم تقليده، وحين عدل عن طريق آبائه جعل الله دينه باقيا فى عقبه إلى يوم القيامة، وأديان آبائه درست و بطلت .

ثم ذكر أن قريشا وآباءهم مَدَّ لهم فى العمر والنعمة فاغتروا بذلك واتبعوا الشهوات وأعرضوا عن توحيد الله وشكره على آلائه، حتى جاءهم الرسول منبها لهم مذكرا بالنظر إلى من فطرهم وفطر السموات والأرض وآتاهم من فضله مايتمتعون به من زينة هذه الحياة، فكذبوه وقالوا ساحر كذاب، ثم حكى عنهم أنهم قالوا: هلا نُزِّل هذا القرآن على رجل عظيم الجاه كثير المال من إحدى القريتين مكة والطائف، فرد الله عليهم مقالهم، بأنه قسم الحظوظ الدنيوية بين عباده، فجعل منهم الغنى والفقير والسيد والمَسُود والملوك والسُّوقة والأقوياء والضعفاء ولم يغير أحد ماحكم به فى أحوال دنياهم على حقارتها، فكيف يعترضون على حكمه فيما هو أرفع درجة وأشرف غاية وأعظم مرتبة وهو منصِب النبوة؟ .

ثم ذكر أن التفاوت فى شئون الدنيا هو الذى يتم به نظام المجتمع والسير به على النهج القويم، فلولاه ماصرّف بعضهم بعضا فى حوائجه، ولا تعاونوا فى تسهيل وسائل المعيشة، ثم أعقب هذا ببيان أنه لولا أن يرغب الناس فى الكفر إذا رأوا الكفار فى سعة من الرزق لمتعهم بكل وسائل النعيم، فجعل لبيوتهم أبوابا من فضة وسقفاً وسرراً ومصاعد منها وزينة فى كل شىء، ولكن كل هذا متاع قليل زائل والآخرة هى الباقية؛ وهى لمن يتقى الله ويجتنب الكفر والمعاصى .

ولم يفعل ذلك بالمسلمين فيوسع عليهم جميعا ، ليكون سبب اجتماعهم على الإسلام العقيدة والإيمان المنبعث عن الاطمئنان ، لأنه لو فعل ذلك لاجتمعوا عليه طلبا للدنيا، وهذا إيمان المنافقين ، ومن ثم ضيق الرزق على بعض المسلمين ووسع على بعض ليكون كل من دخل الإسلام ، فإنما يدخله للدليل والبرهان وابتغاء رضوان الله ومثوبته .

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين) أى واذكر لقومك المكبين على التقليد : كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام ؟ قال لهم إنى براء مما تعبدون إلا من عبادة الله الذى خلقنى وخلق الناس جميعا ، وأنه سيهدينى إلى سبيل الرشاد ويوفقنى إلى اتباع الحق ، وقد جزم بذلك لثقته بربه ، ولقوة يقينه .

(وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) أى وجعل كلمة التوحيد (وهى لا إله إلا الله) كلمة باقية فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله منهم ، لعل أهل مكة يرجعون عما هم عليه إلى دين أبيهم إبراهيم ، فإنهم إذا ذكروا أباهم الأعظم الذى بنى لهم البيت وأورثهم ذلك الفخر تبعوه فيما يدين به .

قال قتادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال ابن العربى : إنما كانت لإبراهيم فى الأعقاب ، موصولة بالأحقاب ، بدعوتيه المجابتين : إحداها قوله : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » فقد قال إلا من ظلم منهم فلا عهد له . ثانيتهما قوله : « وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » .

(بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين) أى ولكنى متعت هؤلاء المشركين وآباءهم من قبل ، ومددت أعمارهم وأكثرت نعمهم فشغلتهم النعم

والترف والشهوات ، فأطاعوا الشيطان ونسوا كلة التوحيد ، فجريت على سنتى أن أجعل فى بنى إبراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم إلى الإيمان ، فاخترت محمدا وأنزلت معه الكتاب ليدعو هؤلاء إلى مافيه صلاحهم فى دينهم ودنياهم ، وسعادتهم فى آخرتهم وأولاهم .

ثم وبخهم على إعراضهم عما جاء به من الحق وعدم النظر فيه فقال :

(ولما جاءهم الحق قالوا هـذا سحر وإنا به كافرون) أى ولما جاءهم القرآن والرسول الصادق بما معه من المعجزات قالوا إن ماجاءنا به سحر وليس بوحى من عند الله وإنا به جاحدون ، فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به .

ثم ذكر ضربا آخر من كفرهم بقوله :

(وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) أى وقالوا إن منصب الرسالة منصب شريف ، فلا يليق إلا برجل شريف كثير المال عظيم الجاه، ومحمد ليس بذاك ، فمن الحق أن يسند هذا المنصب إما للوليد بن المغيرة بمكة أو عروة ابن مسعود الثقفى بالطائف .

فأنكر الله عليهم ذلك وجهّلهم وعجّب من حالهم بقوله :

(أهم يقسمون رحمة ربك) أى عجبا لهم كيف جهلوا قدر أنفسهم ؟ أو قد بلغ من أمرهم أن يصطفوا من يشاءون للنبوة التى لايصلح لها إلا من بلغ مرتبة روحانية خاصة ، وكان ذا فضائل قدسية وكمالات خلقية ، مستهينا بالزخارف الدنيوية التى انغمسوا فيها ؟ فهم ليسوا لها بأهل فضلا عن أن يهبوها لمن يشاءون .

ثم بين خطأهم فى طلب الاصطفاء على حسب مايهوَوْن فقال :

(نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) أى إننا فى هذه الحياة فضلنا بعض العباد على بعض فى الغنى والفقر والقوة والضعف والعلم والجهل والشهرة والخمول ، لأنا لو سوّينا بينهم

فيها لم يخدم بعضهم بعضا ولم يسخر أحد غيره ، وذلك مما يفضى إلى خراب العالم وفساد الدنيا ، ولم يستطع أحد أن يغيّر نظامنا ولا أن يخرج عن حكمنا .

وإذا كانوا قد عجزوا عن ذلك فى أحوال الدنيا فكيف يعترضون علينا فى منصب الرسالة ؟

وقصارى ذلك — إنا قسمنا بينهم أرزاقهم ، أفلا يقنعون بقسمتنا فى أمر النبوة وتفويضها إلى من نشاء من خلقنا ؟.

ثم علل ماسلف بقوله :

(ورحمة ربك خير مما يجمعون) أى ورحمة ربك وفضله بالنبوة وما يتبعها من وحى وكتاب ينزل ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، فالدنيا على شفا جرف هار ، ومظاهرها فانية لاقيمة لها ، فهو قد أغدقها على الدواب والأنعام وكثير من جهلة بنى آدم .

ثم بين حقارة الدنيا وخستها بقوله :

(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا) أى ولولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال للكفار دليل على محبتنا لمن أعطيناه ، فيجتمعوا على الكفر ويرغبوا فيه إذا رأوا سعة الرزق عندهم — لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ومصاعد من فضة وسررا من فضة عليها يتكئون ، وزينة فى كل ما يُرْتفق به من شئون الحياة .

ثم بين أن هذه المتعة قصيرة الأمد سريعة الزوال فهى متاع الحياة الفانية فقال:

(وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) أى وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل ، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التى لايحيط بها عدّ ولا إحصاء — أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصى وعمل بطاعته وآثر الآخرة على الدنيا .

أخرج الترمذى وابن ماجه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء».

وكذلك لو أعطيت هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة المؤمنين ، حتى ليصير الناس كلهم هكذا ، لأخلّت بالمقصود من الإيمان ، لأن الترف والنعيم يحجب العقول عن عالم الروحانيات وارتقى العقلى ، فقلّ من يتخلص من شرك هـذه الآفات ، فالشهوات والزينة والزخارف للعقول أشبه بالقاذورات للأجسام ، والأجسام القذرة يحوم حولها الذباب فيُلْقِى فيها بيوضه لتفرّخ فى القروح والعيون ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات ، وهكذا النفوس الضعيفة تعيش فيها النفوس المماثلة لها من عالم الشياطين وتلقى إليها بذور الفساد ، فتزرع فيها وتحصدها النفوس خزيا وعارا فى الدنيا والآخرة وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله :

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) .

شرح المفردات

يقال عَشِي فلان كرضى إذا حصلت له آفة فى بصره ، وعشا : كغزا إذا نظر نظر العشِيّ لعارض قال الُحطيئة فى المحلَّق الكلابى :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

أى تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من كثرة الوقود واتساع الضوء ، فالمراد هنا أنه يتعامى عن ذكر الله ، نقيض له : أى نهيئ له ونضم إليه ، والقرين : الرفيق الذى لايفارق ، والمشرقين : أى المشرق والمغرب ، وكثيرا ماتسمى العرب الشيئين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

أخـذنا بآفاق السماء عليكمُ لنا قمراها والنجومُ الطوالعُ

يريد الشمس والقمر، و بعد المشرقين : أى بعد أحدهما من الآخر ، فإما نذهبن بك : أى فإن قبضناك وأمتناك ، لذكر: أى لشرف عظيم، تسألون : أى عن قيامكم بما أوجبه القرآن عليكم من التكاليف من أمر ونهى .

المعنى الجملى

بعد أن بين أن المال متاع الدنيا وهو عرض زائل ، ونعيم الآخرة هو النعيم الدائم الذى أعده الله للمتقين — ذكر هنا أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله وصار من جلساء الشياطين الضالين المضلين الذين يصدونه عن السبيل القويم ، و يظن أنه مهتد ، لأنه يتلقى من الشياطين مايلائم أخلاقه ، فيألفه ولا ينكره ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة تبرأ الكافر من الشيطان قرينه وقال له : ليت بينى و بينك بُعْد مابين المشرقين ، ثم أعقب هـذا ببيان أن اشتراك الكافر مع قرينه الشيطان فى العذاب لايخفف عنه شيئا منه ، لاشتغال كل منهما بنفسه .

ثم ذكر لرسوله أن دعوته لاتؤثر فى قلوبهم ، وقلما تُجْدِيهم المواعظ ، فإذا

أسمعتهم القرآن كانوا كالصم ، وإذا أريتهم معجزاتك كانوا كالعمى ، وإنما كانوا كذلك لضلالهم المبين ؛ ثم سلى رسوله وبين له أنه لابد أن ينتقم منهم إما حال حياته أو بعد موته ، ثم أمره أن يستمسك بما أمره الله به ، فيعمل بموجبه فإنه الصراط المستقيم النافع فى الدين والدنيا وفيه الشرف العظيم له ولقومه ، وسوف يسألون عما قاموا به من التكاليف التى أمرهم بها ، ثم أرشد إلى أن بغض الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبى ، فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بِدْعا من بينهم فى الإنكار عليها حتى يعارض ويبغض .

الإيضاح

(ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) أى ومن يتعام عن ذكر الله وينهمك فى لذات الدنيا وشهواتها نسلط عليه شياطين الإنس والجن يزينون له أن يرتع فى الشهوات ، ويَلَغ فى اللذات ، فلا يألو جهدا فى ارتكاب الآثام والمحرمات على ما جرت به سنتنا الكونية ، كما نسلط الذباب على الأجسام القذرة ونخلق الحيات والعقارب والحشرات فى المحالّ العفنة ، لتلطف الجو وترحم الناس والحيوان ، وهكذا النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم فى الذنوب لاستعدادهم لها ، فينالون جزاءهم من عقاب الله وعقوبات البشر واحتقارهم لهم ، إلى ما ينالهم من الأمراض الفتاكة والأدواء التى لا يجدى فيها علاج ، فيكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم وأنّى لهم أن تنفعهم تلك الذكرى فقد فات الأوان ، ولا ينفع الندم على فائت :

ندم البغاة ولاتَ ساعةَ مَنْدَمٍ والبغىُ مَرْتَع مبتغيه وخيمٌ

قال الزجاج : معنى الآية — إن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكم إلى أباطيل المضلين — يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتى يضله ، ويلازمه قرينا له فلا يهتدى ، مجازاة له حين آثر الباطل على الحق المبين .

أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن عثمان المخزومى : أن قريشا قالت قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه ، فقيَّضُوا لأبى بكر طلحة بن عبيد الله ، فأتاه وهو فى القوم فقال أبو بكر : إلام تدعونى ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللاَّت والعُزَّى قال أبو بكر وما اللات؟ قال : أولاد الله ، قال : وما العزَّى ؟ قال : بنات الله ، قال أبو بكر : فمن أمهم ؟ فسكت طلحة فلم يجبه ، وقال لأصحابه أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فأنزل الله هذه الآية ، وثبت فى صحيح مسلم وغيره أن مع كل مسلم قرينا من الجن .

(وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) أى وإن هؤلاء الشياطين الذين يقيضهم الله لكل من يعشو عن ذكر الرحمن ليحولُنَّ بينهم وبين سبيل الحق ، ويوسوسُنَّ لهم أنهم على الجادَّة وسواهم على الباطل ، فيطيعُنَّهم ويكرّهن إليهم الإيمان بالله والعمل بطاعته .

ثم ذكر حال الكافر مع القرين يوم القيامة فقال :

(حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) أى حتى إذا وافى الكافر يوم القيامة إلينا وعرض عليها أعرض عن قرينه الذى وكل به وتبرأ منه وقال : ليت بينى وبينك بعد مابين المشرق والمغرب ، فبئس القرين أنت أيها الشيطان ، لأنك قد أضللتنى وأوصلتنى إلى هذا العذاب المهين ، والخزى الدائم ، والعيش الضنك ، والمحل المُقِضّ المضْجَع .

ثم حكى ماسيقال لهم حينئذ توبيخا وتأنيبا فقال :

(ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) أى ولن ينفعكم فى هذا اليوم اشتراككم فى العذاب أنتم وقرناؤكم ، كما كان ينفع فى الدنيا الاشتراك فى المهامّ الدنيوية ، إذ يتعاونون فى تحمل أعبائها ، ويتقاسمون شدتها وعناءها ، فإن لكل منهم من العذاب ما لا تبلغه طاقته ، ولا قدرة له على احتماله .

وقد يكون المعنى — ولن ينفعكم ذلك من حيث التأسى ، فإن المكروب فى الدنيا يتأسى ويستروح بوجدان المشارك فى البلوى ، فيقول أحدهم لى فى البلاء والمصيبة أسوة ، فيسكّن ذلك من حزنه كما قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا :

يذكّرنى طلوع الشمس صخرا		وأذكره بكل مغيب شمس
فلولا كثرة الباكين حولى		على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن		أعزّى النفس عنه بالتأسى

وقصارى ذلك — إنه لايخفف عنهم بسبب الاشتراك شىء من العذاب ، إذ لكل منهم الحظ الأوفر منه .

وقد يكون المعنى — ولن ينفعكم اليوم الاعتذار والندم ، فأنتم وقرناؤكم مشتركون فى العذاب ، كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا .

وقد وصفهم فيما سلف بالعَشْى ووصفهم هنا بالعمى والصمم ، من قِبَل أن الإنسان لاشتغاله بالدنيا يكون كمن حصل بعينيه ضعف فى البصر ، وكلما زاد انهماكه بها كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل فقال :

(أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ؟) أى أفأنت تسمع من قد سلبهم الله استماع حججه التى ذكرها فى كتابه ، أو تهدى إلى طريق الحق من أعمى قلوبهم عن إبصارها ، واستحوذ عليهم الشيطان فزين لهم طريق الردى .

والخلاصة — إن ذلك ليس إليك ، إنما ذلك إلى من بيده تصريف القلوب وتوجيهها أنَّى شاء ، فعليك البلاغ وعلينا الحساب .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يبالغ فى دعاء قومه إلى الإيمان وهم لايزيدون إلا غيًّا وتعاميا عما يشاهدون من دلائل النبوة ، وتصامًّا عما يسمعون من بينات القرآن .

وبعد أن أيأسه من إيمانهم سلاه بالانتقام منهم لأجله إما حال حياته أو بعد مماته فقال :

(فإما نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينّك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) أى فإن نذهب بك أيها الرسول من بين أظهر المشركين بموت أو غيره فإنا منهم منتقمون كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذبة لرسلها ، أو نرينك الذى وعدناك من الظفر بهم وإعلائك عليهم فإنا عليهم مقتدرون ، فنظهرك عليهم ونخزيهم بيديك وأيدى المؤمنين .

وفى التعبير بالوعد وهو سبحانه لايخلف الميعاد — إشارة إلى أن ذلك سيقع حتما وهكذا كان ، فإنه لم يقبض رسوله حتى أقر عينيه من أعدائه ، وحكّمه فى نواصيهم وملّكه ماتضمنته صياصيهم ، قاله السدى واختاره ابن جرير .

ثم أمر رسوله أن يستمسك بما أوحى به إليه فيعمل به فقال :

(فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) أى خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق المفضى إلى الصراط المستقيم ، والموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم .

ثم ذكر مايستحثه على التمسك به فقال :

(وإنه لذكر لك ولقومك) أى وإن القرآن لشرف عظيم لك ولقومك ، لأنه نزل بلغتهم على رجل منهم فهم أفهم الناس له ، فينبغى أن يكونوا أسبق الناس إلى العمل به .

أخرج الطبرانى وابن مردويه عن عدى بن حاتم قال : « كنت قاعدا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ألا إن الله تعالى علم ما فى قلبى من حبى لقومى فبشرنى فيهم فقال سبحانه : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » الآية . فجعل الذكر والشرف لقومى — إلى أن قال — فالحمد لله الذى جعل الصديق من قومى والشهيد من قومى ،

وإن الله قلب العباد ظهرا وبطنا ، فكان خير العرب قريش وهى الشجرة المباركة » ثم قال عدىّ ما رأيت رسول الله ذكرت عنده قريش بخير إلا سره حتى يتبين ذلك السرور فى وجهه للناس كلهم اه .

ونظير الآية قوله فى سورة الأنبياء «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ» أى شرفكم ، فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب ، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم وصاروا عيالا عليهم ، حتى يقفوا على معانيه من أمر ونهى ونبإ وقصص وحكمة وأدب .

روى الترمذى عن معاوية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين » .

وفى الآية إيماء إلى أن الذكر الجميل والثناء الحسن أمر مرغوب فيه ، ولولا ذلك ما امتن الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم به ، ولما طلبه إبراهيم عليه السلام بقوله: « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » وقال ابن دريد :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال

(وسوف تسئلون) عن حقه وأداء شكر النعمة فيه .

وخلاصة ماسلف — إن القرآن نزل بلغة العرب وقد وعد الله بنشر هذا الدين وأبناء العرب هم العارفون بهذه اللغة ، فهم الملزمون بنشرها ونشر هذا الدين للأمم الأخرى ، فمتى قصروا فى ذلك أذلهم الله فى الدنيا وأدخلهم النار فى الآخرة ، فعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب ويعلموا أنهم هم المعلّمون للأمم ، فينشروا هذا القرآن ويكتبوا المصاحف باللغة العربية ، ويضعوا على هوامشها تفاسير بلغات مختلفة كالإنجليزية والألمانية والروسية حتى تعرف الأمم كلها هذا الدين معرفة حقة خالية

من الخرافات التي ألصقها به المبتدعون، ويعود سيرته الأولى، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم وبخ مشركي قريش بأن ماهم عليه من عبادة الأصنام لم يأت في شريعة من الشرائع فقال :

(واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) أي واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل : هل حكمنا بعبادة غير الله ؟ وهل جاء ذلك في ملة من الملل ؟ والمراد بهذا الاستشهاد بيان إجماع المرسلين على التوحيد والتنبيه إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من بين الرسل في الأمر به ، حتى يكذّب ويعادى له .

وقصارى ذلك — إن الرسل جميعا دعوا إلى ما دعا إليه من عبادة الله وحده لاشريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ : أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦) .

شرح المفردات

الآيات : هى المعجزات ، وملئه : أى أشراف قومه ، أخذناهم : أى أخذ قهر بالعذاب فأرسلنا عليهم الجراد والقُمّل والضفادع ، الساحر : أى العالم الماهر ، بما عهد عندك : أى بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب الذى نزل بنا ، ينكثون : أى ينقضون العهد ، من تحتى : أى من تحت قصرى و بين يدىّ فى جنانى ، مهين : أى ضعيف حقير ، يبين : أى يفصح عن كلامه . قال ابن عباس كانت بموسى لثغة فى لسانه (واللثغة بالضم : أن تصير الراء غينا أو لاما والسين ثاء وقد لثغ من باب طرب فهو ألثغ) ، والأسورة : واحدها سوار كأخمرة وخمار ، قال مجاهد : كانوا إذا سوّدوا رجلا سوّروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة سيادته ، مقترنين : أى مقرونين به يعينونه على من خالفه ، فاستخف قومه : أى استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال فاستجابوا له، آسفونا : أى أغضبونا وأسخطونا. قال الراغب : الأسف الحزن والغضب معا ، وقد يقال لكل منهما على الانفراد . وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام ، فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا ، سلفا : أى قدوة لمن بعدهم من الكفار ، مثلا : أى حديثا عجيب الشأن يسير مسير المثل فيقول الناس مثلكم مثل قوم فرعون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن كفار قريش طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لكونه فقيرا عديم المال والجاه — بين هنا أن موسى بعد أن أورد المعجزات الباهرة أورد فرعون هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال : إنى غنى كثير المال عظيم الجاه، فلى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، وموسى فقير مهين وليس له بيان ولا لسان ، وهذا شبيه بما قاله كفار قريش .

وأيضا فإنه لما قال : واسأل من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا — ذكر هنا قصة موسى وعيسى عليهما السلام وهما أكثر الأنبياء أتباعا وقد جاءا بالتوحيد ولم يكن فيما جاءا به إباحة اتخاذ آلهة من دون الله .

ثم ذكر سبحانه أن فرعون قال : هلا ألقى إلى موسى مقاليد الملك فطوّق بسوار من ذهب إن كان صادقا ، زعما منه أن الرياسة من لوازم الرسالة ، أو جاء معه جمع من الملائكة يعينونه على من خالفه ، وأعقب هذا بأن ذكر أنه حين دعا قومه إلى تكذيب موسى فى دعواه الرسالة أطاعوه لضلالهم وغوايتهم ، ولما لم تُجْدِ فيهم المواعظ غضبنا وانتقمنا منهم وجعلناهم قدوة للكافرين ، وضربنا بهم الأمثال للناس ليكونوا عبرة لهم .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين) أى ولقد بعثنا موسى ومعه حججه الدالة على صدقه إلى فرعون وأشراف قومه ، كما أرسلناك إلى هؤلاء المشركين من قومك ، فقال لهم : إنى رسول من قِبل الله إليكم ، كما قلت أنت لقومك : إنى رسول الله إليكم .

فطالبوه بإحضار البينة على صدق دعواه كما يدل على ذلك قوله :

(فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) أى فلما جاءهم بالأدلة على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الآلهة — إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك المعجزات ، كما أن قومك يسخرون مما جئتهم به .

وفى هذا تسلية لرسوله عما كان يلقاه من قومه المشركين ، وإعلام له بأن قومه لن يَعْدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، ونَدْبٌ منه له أن يستن بسنة أولى العزم من الرسل فى الصبر على أذى أقوامهم وتكذيبهم لهم ، وإخبار بأن عقبى أمرهم الهلاك كسنته فى الكافرين قبلهم ، وظفره بهم ، وعلوّ أمره كما فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به من إظهارهم على فرعون وملئه .

(وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها) أى وما أرينا فرعون وملأه حجة من حججنا الدالة على صدق رسولنا فى دعواه الرسالة إلا كانت أعظم من سابقتها فى الحجية عليهم ، وآكد فى الدلالة على صحة ما يأمر به من توحيد الله ، ومعنى الأخوة بين الآيات تشاكلها وتناسبها فى الدلالة على صحة نبوة موسى كما يقال هذه صاحبة هذه أى هما قرينتان فى المعنى .

ثم بين ماجوزوا به على تكذيبهم فقال :

(وأخذناهم بالعذاب) أى وأنزلنا عليهم ألوانا من العذاب كنقص الثمرات والجراد والقمل والضفادع .

ثم بين العلة فى أخذه لهم بذلك وهو رجاء رجوعهم فقال :

(لعلهم يرجعون) أى لكى يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان بالله وطاعته والتوبة مما هم عليه مقيمون من المعاصى .

ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات — ظنوا أن ذلك من قبيل السحر .

(وقالوا يأيها الساحر) أى وقالوا يأيها العالم الماهر وكانوا يسمون العلماء سحرة ويوقرونهم ويعظمونهم ولم يكن السحر صفة ذم عندهم .

وقد يكونون نادوه بذلك فى تلك الحال ، لشدة شكيمتهم ، وفرط حماقتهم .

(ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب بما أخبرتنا من عهده إليك ، أنا إن آمنا به كشفه عنا .

(إننا لمهتدون) أى إنا لمؤمنون بما جئت به إن حدث ذلك .

ونحو ذلك ما جاء فى سورة الأعراف من قولهم : « لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » .

ثم بين ماحدث منهم بعد دعوة موسى وكشف العذاب فقال :

(فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) أى فدعا ربه فكشفه عنهم فلم يؤمنوا ونقضوا العهد ، وقد كان هذا دَيْدَنهم مع موسى ، يعدونه فى كل مرة أن يؤمنوا به إذا كشف عنهم الرجز ثم ينقضون ما عاهدوا الله عليه .

ونحو الآية ما جاء فى سورة الأعراف من قوله : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن تمرد فرعون وعتوه وعناده فقال :

(ونادى فرعون فى قومه قال : يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) أى إنه جمع قومه ونادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها وجرى الأنهار المنبثقة من نهر النيل تحت قصوره وتحت جنانه وضياعه .

ثم أكد هذا بقوله :

(أفلا تبصرون ؟) ذلك وتستدلون به على قوة ملكى وعظم قدرى وضعف موسى عن مقاومتى لما فيه من فقر وعِىّ وحَصَر .

(أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) أى بل أنا ولا شك خير بما لى من السعة فى المال والجاه والملك العريض — من هذا المهين الحقير الذى لا يكاد يفصح عما يريد ، إذ كان فى لسانه حُبسة فى صغره فعابه بها ، وهو لا يعلم أن الله استجاب سؤله حين قال : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي » فحل عقدة لسانه كما جاء فى قوله : « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى » .

قال الحسن البصرى : إنه قد بقى منها شىء لم يسأل زواله ، وإنما سأل زوال ما يمنع الإبلاغ والإفهام اه .

والأشياء الخلقية لا يعاب المرء بها ولا يذم ، لكنه أراد الترويج على رعيته وصدهم عن الإيمان به .

ونحو الآية قوله : « فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » .

ثم ذكر شبهة مانعة له من الرياسة وهى أنه لا يلبس لبس الملوك ، فلا يكون رئيسا ولا رسولا لتلازمهما فى زعمه فقال :

(فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) أى فهلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقا كما جرت عادتهم بذلك ، وهذا شبيه بما قال كفار قريش فى عظيم القريتين .

ثم ذكر شبهة أخرى وهى أنه ليس له خدم من الملائكة تعينه فقال :

(أو جاء معه الملائكة مقترنين) أى هلا جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صادقا ، يعينونه على أمره ويشهدون له بالنبوة ويمشون معه ، كما نفعل نحن

إذا أرسلنا رسولا فى أمر هامّ يحتاج إلى دفاع ، وفيه خصام ونزاع — وهو بهذا أوهم قومه أن الرسل لابد أن يكونوا على هيئة الجبابرة ، أو يكونوا محفوفين بالملائكة .

ثم ذكر أن هذه الخدع قد انطلت عليهم ، وسحرت ألبابهم ، لغفلتهم وضعف عقولهم ، فاعترفوا بربوبيته وكذبوا بنبوة موسى فقال :

(فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) أى فاستخف أحلامهم بقوله وكيده ، وبما أبداه من عظمة الملك والرياسة ، وجعلها مناطا للعلم والنبوة ، وأنه لو كانت هناك نبوة لكان أولى بها ، فأطاعوه فيما أمرهم ، لأنهم كانوا قوما ذوى ضلال وغىّ ، ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق الغوىّ .

ثم ذكر جزاءهم على ما اجترحوا من تكذيب رسوله على وضوح الدليل وظهور الحق فقال :

(فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) أى فلما أغضبونا بعنادهم وعظيم استكبارهم وبغيهم فى الأرض — انتقمنا منهم بعاجل عذابنا فأغرقناهم جميعا .

وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به وهو الماء فى قوله : « وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِي » :

وفى هذا إشارة إلى أن من تعزز بشىء دون الله أهلكه الله به .

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب وابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتَ الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له ، وقرأ : (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) » .

(فجعلناهم سلفا) أى فجعلناهم قدوة لمن يعمل عملهم من أهل الضلال ككفار قومك .

(ومثلا للآخرين) أى وعبرة وموعظة لمن يأتى بعدهم من الكافرين .

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا
أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨)
إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاء
لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ
فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ
الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ
جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَاتَّقُوا
اللهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هٰذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ
لاَ يَشْعُرُونَ (٦٦).

شرح المفردات

مثلا: أى حجة وبرهانا، يصِدّون (بكسر الصاد) أى يصيحون ويرتفع لهم ضجيج وفرح، جدلا: أى خصومة بالباطل، خصمون: أى شديدو الخصومة مجبولون على اللجاج وسوء الخلق، مثلا: أى أمرا عجيبا، منكم: أى من بعضكم، يخلفون: أى يخلفونكم فى الأرض، علم: أى علامة وشرط من أشراطها، فلا تمترنّ: أى فلا تشكنّ، البينات: المعجزات، الحكمة: الشرائع المحكمة التى لا يستطاع نقضها ولا إبطالها.

المعنى الجملى

روى محمد بن إسحاق فى السيرة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما فى المسجد مع الوليد بن المغيرة ، فجاء النضر بن الحارث وجلس معهم وفى المسجد غير واحد من رجالات قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم : (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) الآيات ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى التميمى وجلس فقال له الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال ابن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمْتُه ، سلوا محمدا ، أكلُّ مايعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته وأنزل الله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) أى عيسى وعزير ومن عبد معهما ، فاتخذهم مَنْ بعدهم من أهل الضلال أربابا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه السلام وأنه يعبد من دون الله (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا الآية) ».

الإيضاح

(ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) أى ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى له ، إذا

قومك من هذا المثل يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وسرورا كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا أعيَوْا فى حجة ثم فتحت عليهم .

وقد روى أن عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه قال للنبى صلى الله عليه وسلم وقد سمعه يقول : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » أليس النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول كان نبيا وعبدا صالحا ، فإن كان فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ، ففرح قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم .

(وقالوا أآلهتنا خير أم هو؟) أى إن آلهتنا ليست خيرا من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون .

(ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) أى ماضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة فى القول لا لإظهار الحق ، فإن قوله : «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ » إنما ينطلق على الأصنام والأوثان ولا يتناول عيسى والملائكة ، ولكنهم قوم ذوُو لَدَدٍ وفى الخصومة مجبولون على سوء الخلق واللجاج .

قال صاحب الكشاف : إن ابن الزبعرى بخبّه وخداعه وخبث دِخْلته لما رأى كلام الله ورسوله محتملا لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم لاغير — وجد للحيلة مساغا فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله ، على طريقة المحْك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقح فى ذلك ، فتوقَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » فدل به على أن الآية خاصة فى الأصنام اهـ .

أخرج سعيد بن منصور وأحمد فى جماعة عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا هذه الآية » .

ثم بين أن عيسى عبد من عبيده الذين أنعم عليهم بقوله :

(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) أى ماعيسى بن مريم

لا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها ، فهو رفيع المنزلة ذلى القدر ، وقد جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة سائرة تفتح للناس باب التذكر والفهم ، وليست مخالفة العادة بموجبة لعبادته كما يزعم النصارى ، بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم .

(ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) أى ولو نشاء لجعلنا ذريتكم ملائكة يخلفونكم فى الأرض كما يخلفكم أولادكم ، كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر وجعلناه رجلا .

وقد يكون المعنى على التهديد والتخويف لقريش ويكون المراد — لو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلكم فى الأرض ملائكة يعمرونها ويعبدوننا .

والخلاصة — إننا لو نشاء لجعلنا فى الأرض عجائب كأمر عيسى بحيث يلد الرجل ملكا فيخلفه ، فباب العجائب والنظم لاحد له عندنا ، فكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصريفها .

(وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم) أى وإن القرآن يعلمكم بقيام الساعة ويخبركم عنها وعن أهوالها ، فلا تشكّنّ فيها واتبعوا هداى ، فهذا الذى أدعوكم إليه هو الصراط المستقيم الذى لاعوج فيه وهو الموصل إلى الحق .

(ولا يصدنكم الشيطان) أى ولا تغتروا بوساوس الشيطان وشبهه التى يوقعها فى قلوبكم ، فيمنعكم ذلك عن اتباعى ، فإن الذى دعوتكم إليه هو دين الله الذى اتفق عليه رسله وكتبه .

ثم علل نهيهم عن اتباعه بعداوته لهم فقال :

(إنه لكم عدو مبين) أى إنه مظهر لعداوته لكم ، غير متحاش ولا متكتم لها كما يدل على ذلك ماوقع بينه وبين أبيكم آدم من امتناعه عن السجود له ، وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بنى آدم إلا عباد الله المخلصين .

(ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) أى ولما جاء عيسى بالمعجزات الواضحة قال قد جئتكم بالشرائع التى فيها صلاح البشر ، ولأبين لكم بعض ما اختلف فيه قوم موسى من أحكام الدين دون أمور الدنيا كطرق الفلاحة والتجارة ، فإن الأنبياء لم يبعثوا لبيانها كما يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام حين نهاهم عن تأبير النخل (تلقيحه بالطلع) ففسد الثمر ولم يغلّ شيئا نافعا «أنتم أعلم بأمور دنياكم وأنا أعلم بأمور دينكم» .

ولما بين لهم أصول الدين وفروعه قال :

(فاتقوا الله وأطيعون) أى فاتقوا الله فى مخالفتى ، وخافوا أن يحل بكم عقابه ، وأطيعونى فيما أبلغكم عنه من الشرائع والتكاليف .

ثم فصل ما يأمرهم به بقوله :

(إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه) أى إن الله الذى يستحق إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له — ربى وربكم ، فأنا وأنتم عبيد له فقراء إليه .

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم ، وكل الديانات جاءت بمثله ، فما هو إلا اعتقاد بوحدانية الله ، وتعبد بشرائعه .

وقصارى ذلك — إنه علم بحقائق ، وعمل بشرائع .

ولما كان الطريق القويم يجب الاجتماع عليه ، والاتفاق على سلوكه — بين أنهم خالفوا ذلك فاختلفوا فيه فقال :

(فاختلف الأحزاب من بينهم) أى فاختلف النصارى وصاروا شيعا ، من ملكانية إلى نسطورية إلى يعقوبية ؛ فمنهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعى أنه ابن الله ، ومنهم من يقول إنه الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

(فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) أى فالويل لهؤلاء المختلفين الذين

أشركوا بالله وقالوا فى عيسى ما كفروا به ـ من عذاب يوم القيامة حين يحاسبون على ما قالوا وعلى ماعملوا .

ثم حذرهم وأنذرهم على ما هم فيه من الخلاف دون أن يتبينوا وجه الحق فقال :

(هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون) أى هل ينتظر هؤلاء الأحزاب المختلفون فى شأن عيسى القائلون فيه الباطل من القول — إلا أن تقوم الساعة بغتة وهم غافلون عنها لايعلمون بمجيئها لاشتغالهم بأمر دنياهم و إنكارهم لها، فيندمون حين لاينفعهم الندم ولا يدفع ذلك عنهم شيئا .

ونحو الآية قوله تعالى : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » .

روى ابن مردويه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعمة ، والرجلان يطويان الثوب ، ثم قرأ (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون) .

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَاعِبَادِ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) .

شرح المفردات

الأخلاء : واحدهم خليل ، وهوالصديق الحميم ، مسلمين : أى مخلصين منقادين لربهم ، تحبرون : أى تسرون سرورا يظهر حباره (بفتح الحاء) أى أثره من النضرة

والحسن على وجوهكم ، والصحاف : واحدها صحفة وهى كالقصعة ، قال الكسائى أكبر أوانى الأكل الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم المِئْكلة ، والأكواب : واحدها كوب ، وهو كوز لا أذن له .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن يوم القيامة سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون — أردف ذلك ببيان أحوال ذلك اليوم ، فمنها أن الأخلاء يتعادَون فيه إلا من تخالّوا على الإيمان والتقوى، ومنها أن المؤمنين لا يخافون من سلب نعمة يتمتعون بها ، ولا يحزنون على فقد نعمة قد فاتتهم ، ومنها أنهم يتمتعون بفنون من الترف والنعيم فيطاف عليهم بالصحاف من الذهب فيها مالذّ وطاب من المآكل ، وبالأكواب والأباريق فيها شهىّ المشارب ، ويقال لهم هـذا النعيم كفاء ما قدمتم من عمل بأوامر الشرع ونواهيه ، وأسلفتم من إخلاص لله وتقوى له .

الإيضاح

(الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين) أى كل صداقة وخلّة فإنها تنقلب فى ذلك اليوم إلى عداوة إلا ما كانت فى الله وفى سبيله ، فإنهـا تبقى فى الدنيا والآخرة .

ونحو الآية ما قاله إبراهيم لقومه : « إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

ثم ذكر ما يتلقى به سبحانه عباده المؤمنين المتحابين فى الله تشريفا لهم وتسكينا لرَوْعهم مما يرون من الأهوال فقال :

(يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) أى ونقول لهم حينئذ : يا عباد

لاتخافوا من عقابى ، فإنى قد أمنتكم منه برضاى عنكم ، ولا تحزنوا على فراق الدنيا ، فإن الذى تقدمون عليه خير لكم مما فارقتموه منها .

ثم بين من يستحق هذا النداء وذلك التكريم فقال :

(الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) أى الذين آمنت قلوبهم وصفت نفوسهم وانقادت لشرع الله بواطنهم وظواهرهم .

ثم ذكر مايقال لهم على سبيل البشرى فقال :

(ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) أى ادخلوا الجنة أيها المؤمنون أنتم وأزواجكم مغبوطين بكرامة الله ، مسرورين بما أعطاكم من منته .

وبعدئذ ذكر طرفا مما يتمتعون به من النعيم فقال :

(يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) أى وبعد أن يستقروا فى الجنة ويهدأ روعهم يطاف عليهم بجفان من الذهب متنوعة بألوان الأطعمة والحلوى ، وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذّ وطاب .

وبعد أن فصل بعض ما فى الجنة من نعيم ، عمّم فى ذلك فقال :

(وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) أى وفى الجنة ماتشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها مما تطلبه النفوس وتهواه ، كائنا ما كان جزاء لهم على مامنعوا أنفسهم من الشهوات ، وفيها ماتقرّ أعينهم بمشاهدته ، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، وأنتم لاتخرجون منها ولا تبغون عنها حِوَلا .

أخرج ابن أبى شيبة والترمذى عن عبد الرحمن بن سابط قال : « قال رجل يا رسول الله هل فى الجنة خيل فإنى أحب الخيل ؟ قال : إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء فتطير بك فى أىّ الجنة شئت إلا فعلت ، وسأله آخر فقال : يا رسول الله هل فى الجنة من إبل فإنى أحب الإبل ؟ فقال إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك » .

ثم ذكر أن هذا كان فضلا من ربكم آتاكموه كفاء أعمالكم التى أسلفتموها فقال :

(وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) أى وهذه الجنة جعلها الله لكم باقية كالميراث الذى يبقى عن المورث ، جزاء ما قدمتم من عمل صالح .

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مامن أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فالكافرُ يرث المؤمنَ منزلَه فى النار ، والمؤمنُ يرث الكافرَ منزله فى الجنة ، وذلك قوله : « وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا » .

وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال :

(لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) أى لكم فيها صنوف من الفواكه لاحصر لها ، تأكلون منها حيثما شئتم ، وكيفما اخترتم .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) .

شرح المفردات

المراد بالمجرمين هنا الراسخون فى الإجرام وهم الكفار ، يفتّر : أى يخفف ، من قولهم : فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلا ، مبلسون : من الإبلاس وهو الحزن المعترض

من شدة اليأس ، والمبلس كثيرا مايلزم السكوت وينسى مايعنيه ، ومن ثم قيل أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته ، قاله الراغب ، مالك : خازن النار ، ليقض علينا ربك : أى ليمتنا ، من قولهم : قضى عليه : أى أماته ، وأبرم الأمر : أحكم تدبيره ، أمرا : هو التحيل فى تكذيب الحق ، والسر : هو مايحدث به المرء نفسه أو غيره فى مكان خال ، والنجوى : التناجى فيما بينهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أعدّ لأهل الجنة من النعيم المقيم ، والتمتع بفنون اللذات من المآكل والمشارب والفواكه — أعقب ذلك بذكر ما يكون فيه الكفار من العذاب الأليم الدائم الذى لايخفف عنهم أبدا ، وهم فى حزن لاينقطع ، ثم ذكر أن هذا ليس إلا جزاء وفاقا لما دسّوا به أنفسهم من سيء الأعمال ، ثم أردف ذلك بمقال أهل النار لخزنة جهنم وطلبهم من ربهم أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب ، ثم إجابته لهم عن ذلك ، ثم وبخهم على ماعملوا فى الدنيا واستحقوا به العذاب ، ثم ذكر ما أحكموا تدبيره من رد الحق وإعلاء شأن الباطل ظنا منهم أنا لانسمع سرّهم ونجواهم ، وقد وهموا فيما ظنوا ، فإن الله عليم بذلك ورسله يكتبون كل ماصدر عنهم من قول أوفعل .

الإيضاح

(إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون) أى إن الذين اجترموا الكفر بالله فى الدنيا يجازيهم ربهم بعذاب جهنم خالدين فيه أبدا لاينفك عنهم ولا يجدون عنه حِوَلا .

(لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون) أى لايخفف عنهم لحظة وهم فيه ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج ، ولا منافاة بين هذا و بين قوله الآتى : ونادوا

يامالك الخ لأن تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال، فيسكتون تارة لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لافرج ، ويشتد عليهم العذاب أخرى فيستغيثون.

ثم ذكر أن ذلك العذاب جزاء ما كسبت أيديهم فقال :

(وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) أى وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم ما أخبرناكم أننا فاعلون بهم ، ولكن هم الذين أساءوا إلى أنفسهم ، فكذبوا الرسل وعصوهم بعد أن أقاموا الحجة عليهم ، فأتوهم بباهر المعجزات .

ثم ذكر مايقوله أهل النار وما يجيبهم به خزنتها فقال :

(ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) أى ونادى المجرمون من شدة العذاب فقالوا : يا مالك ادع لنا ربك أن يقبض أرواحنا ليريحنا مما نحن فيه فأجابهم بقوله إنكم ماكثون لاخروج لكم منها ، ولا محيد لكم عنها .

ونحو الآية قوله تعالى : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وقوله : « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » .

ثم خاطبهم خطاب تقريع وتوبيخ وبيَّن سبب مكثهم فيها بقوله :

(لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) أى لقد بيّنا لكم الحق على ألسنة رسلنا وأنزلنا إليكم الكتب ، مرشدة إليه ولكن سجاياكم لاتقبله ولا تُقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه ، وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لاتنفعكم الندامة .

وبعد أن ذكر كيفية عذابهم فى الآخرة ، بين سببه وهو مكرهم وسوء طويتهم فى الدنيا فقال :

(أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون) أى بل هم تحيلوا فى رد الحق بالباطل بوجوه من الحيل والمكر ، فكادهم الله تعالى ورد عليهم سوء كيدهم بتخليدهم فى النار معذبين فيها أبدا .

وقصارى ذلك — أحكموا كيد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنا محكمون لهم كيدا ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد .

ونحو الآية قوله : « وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » وقوله : « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ » .

(أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم) أى بل أيظنون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك ، ولا مايتكلمون به فيما بينهم بطريق التناجى .

(بلى ورسلنا لديهم يكتبون) أى بلى نسمعهما ونطلع عليهما ، والحفظة يكتبون جميع مايصدر عنهم من قول أو فعل .

والخلاصة — إنا نعلم ذلك والملائكة يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

قال يحيى بن معاذ : من ستر من الناس ذنوبه ، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من أمارات النفاق .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : بينا ثلاثة نفر بين الكعبة وأستارها ، قرشيان وثقفى ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ، وقال الثانى إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ، فنزلت الآية .

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) .

شرح المفردات

سبحان رب السموات : أى تنزيها له عن كل نقص ، يصفون : أى يقولون كذبا بأن له ولدا ، فذرهم : أى فاتركهم ، يخوضوا : أى يسلكوا فى باطلهم مسلك الخائضين فى الماء ، ويلعبوا : أى يفعلوا فى أمورهم الدنيوية فعل اللاعب الغافل عن عاقبة مايعمل ، يومهم هو يوم القيامة ، إله : أى معبود بحق لاشريك له ، يدعون : أى يعبدون ، من شهد بالحق : أى من نطق بكلمة التوحيد ، يؤفكون : أى يصرفون ، وقيله : أى قوله . قال أبو عبيدة : يقال قلت قولا وقالا وقيلا ، وفى الخبر « نهى عن قيلٍ وقالٍ » ، فاصفح عنهم : أى اعف عنهم عفو المعرض ولا تقف عن التبليغ ، سلام : أى سلام متاركة لكم بسلامتكم منى وسلامتى منكم .

المعنى الجملى

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين إحقاقا للحق : إن مخالفته لهم فى عبادة مايعبدون لم يكن بغضا منه لهم ولا عداوة لمعبوديهم ، بل لاستحالة نسبة مانسبوه إليهم و بنوا عليه عبادتهم لهم من كونهم بنات الله ، تنزه ربنا عما يقولون ، ثم أمره أن يتركهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى يلاقون فيه جزاء أعمالهم وأقوالهم ،

ثم أخبر بأن لامعبود فى السماء ولا فى الأرض سواه ، وهو الحكيم العليم بكل شىء وأن من يعبدونهم لا يشفعون لهم حين الجزاء والحساب ، ثم ذكر أن أقوالهم تناقض أفعالهم، فهم يعبدون غير الله ، و يقولون إن الخالق للكون: سمائه ، وأرضه هو الله ، ثم أردف هذا بأنه لايعلم الساعة إلا هو ، وأنه يعلم شديد حزنك على عدم إيمانهم ، وعدم استجابتهم لدعوتك ، ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم وتركهم وشأنهم ، وسيأتى اليوم الذى يلقون فيه الجزاء على سوء صنيعهم .

الإيضاح

(قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أى قل لهم : إن ثبت ببرهان صحيح توردونه ، وحجة واضحة تُدْلون بها — أن للرحمن ولدا ، كنت أسبقكم إلى طاعته ، والانقياد له ، كما يعظم الرجل ابن الملك تعظيما لأبيه — ولاشك أن هذا أبلغ أسلوب فى نفى الولد ؛ كما يقول الرجل لمن يناظره ويجادله : إن ثبت ماتقول بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به ، وهذا ما اختاره ابن جرير ورجحه .

وخلاصته — إذا كنت لم أعترف بولد ، بدليل أنى لم أعبده مع أنى أقرب الناس إلى الله ، فالولد لاوجود له حتما — وكأنه يقول : إن انتفاء الولد مرتب على انتفاء عبادته ، لما علم من أنه إذا انتفى اللازم لشىء انتفى ذلك الشىء ، كما استدل بعدم فساد نظام الكون على وحدانية الله فى قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا — السموات والأرض — آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » .

ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

(سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أى تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق، ورب العرش المحيط بذلك كله — عما يصفه

به المشركون كذبا ، وعما ينسبون إليه من الولد ، إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكا له ، ويكون شىء منها جزءا منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوّا كبيراً .

ولما ذكر الدليل القاطع على نفى الولد أمره أن يتركهم وشأنهم فيما يقولون فقال:

(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) أى فاترك أيها الرسول هؤلاء المفترين على الله ، الواصفيه بأن له ولدا ، يخوضوا فى باطلهم ، ويلعبوا فى دنياهم حتى يأتى ذلك اليوم الذى لامحيص منه ، وحينئذ يعلمون عاقبة أمرهم ، ويذوقون الوبال والنكال جزاء ما اجترحوه من الشرك والآثام .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد والتهديد .

ثم أكد هذا التنزيه فقال :

(وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم) أى وهو الله الذى يعبده أهل السماء وأهل الأرض ، ولا تصلح العبادة إلا له ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء ، العليم بمصالحهم ، فالحكمة المقترنة بالعلم تخللت كل رطب ويابس وجليل وحقير ، فمن يشاهد إتقان العالم وحسن تنسيقه وإبداعه يجد الحكمة فيه على أتم وجوهها ، ويعجب مما فيه من جمال وكمال ويدهش لما يجد فيه من غرائب يحار فيها اللب ، فأفردوا له العبادة ، ولا تشركوا به شيئاً سواه .

(وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) أى تقدس خالق السموات والأرض وما فيهما من عوالم لاندرى كنهها ولا نعلم حقيقتها ، المتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة من أحد ، وهو العلى العظيم الذى بيده أزِمَّة الأمور نقضاً وإبراما .

(وعنده علم الساعة) أى وعنده العلم بميقات الساعة لايجلّيها لوقتها إلا هو .

(وإليه ترجعون) أى وإليه المرجع فيجازى كل أحد بما يستحق ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

(ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أى ولا تقدر الأصنام والأوثان التى يعبدونها على الشفاعة لهم كما زعموا أنهم شفعاء عند ربهم ، ولكن من نطق بكلمة التوحيد وكان على بصيرة وعلم من ربه كالملائكة وعيسى تنفع شهادتهم عنده بإذنه لمن يستحقها .

وقال سعيد بن جُبير : إن معنى الآية — لايملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم و بصيرة .

ثم بين أن هؤلاء المشركين متناقضو الأقوال والأفعال فقال :

(ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله) أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله العابدين غيره ، من خلق الخلق جميعا ؟ ليعترفُنَّ بأنه الله تعالى وحده لاشريك له فى ذلك ، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه .

(فأنى يؤفكون ؟) أى فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف ، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم أو حيوان وعبده مع الله أو عبده وحده — فقد عبد بعض مخلوقات الله ، فهم فى غاية الجهل والسفه وضعف العقل .

وفى هذا تعجيب شديد من إشراكهم بعد هذا .

(وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لايؤمنون) أى و يعلم علم الساعة وقوله لربه شاكيا قومه الذين كذبوه ولقى منهم شديد الأذى : يا رب إن هؤلاء الذين أمرتنى بإنذارهم وأرسلتنى إليهم لتبليغهم دينك الحق — قوم لايؤمنون .

ولما شكا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه عدم إيمانهم أجابه ربه بقوله :

(فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) أى فأعرض عنهم وأنت آيس من إيمانهم ولا تجبهم بمثل مايخاطبونك به من سيئ الكلام ، بل تألفهم واصفح عنهم قولا وفعلا ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، فإنك ستنتصر عليهم ويحل بهم بأسنا الذى لايرد .

وقد أنجز الله وعده ، وأنفذ كلمته ، وأعلى دينه ، وشرع الجهاد والجلاد ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانتشر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها .

فلله الحمد والمنة على إظهار الحق وإعلاء مناره ، وإزهاق الباطل وكبح جماحه ، تعاليت ربنا يا ذا الجلال والإكرام ، والطَّوْل والإنعام ، وصلواتك على محمد وآله .

خلاصة ما تضمنته السورة من المقاصد

(١) وصف القرآن الكريم .
(٢) الأمر بإنذار قومه صلى الله عليه وسلم مع غفلتهم وإسرافهم فى لذات الدنيا.
(٣) شأن هؤلاء المشركين فى تكذيبهم للرسول شأن غيرهم من المكذبين من قبلهم .
(٤) اعترافهم بأن الله هو خالق السموات والأرض مع عبادتهم للأصنام والأوثان .
(٥) اعتقادهم أن الملائكة بنات الله ثم نعى ذلك عليهم .
(٦) تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد فى شئونهم الدينية .
(٧) قصص الأنبياء من أولى العزم كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.
(٨) وصف نعيم الجنة .
(٩) الأهوال التى يلقاها أهل النار حتى يتمنوا الموت ليستريحوا مما هم فيه .
(١٠) متاركة أهل الباطل والصفح عنهم حتى يأتى وعد الله .